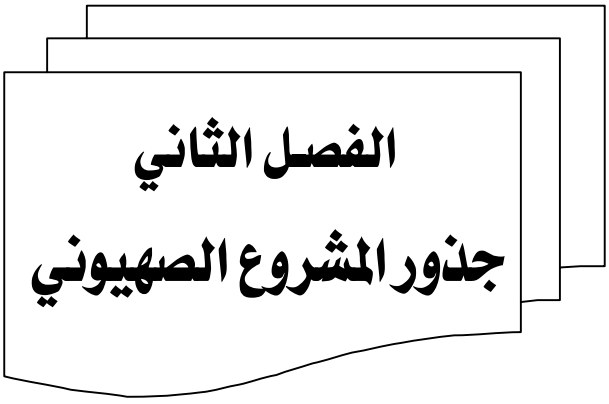
الفصل الثاني
جذور المشروع الصهيوني

لقد قام المشروع الصهيوني بناء على فكرة إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، بدعوى أنها أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، وكان الهدف من ذلك هو حل المسألة اليهودية في العالم، وذلك بالاستناد للأساطير والادعاءات التوراتية، وحينما وجدت الفرصة، أعطت الصهيونية لليهودية قيمة تبيح في سبيلها كل شيء، بما في ذلك الاستيلاء على أرض الغير، ومحو الشعب الآخر من الأرض والتاريخ، أي من الزمان والمكان، وبذلك اعتبرت اليهودية بمثابة نسق استثنائي فريد فوق الجغرافيا والتاريخ والثقافة، فهي بالنسبة للصهيونية ليست مجرد دين وإنما هي قومية أبدية!

هكذا قامت الصهيونية، التي يفترض بأنها علمانية، استخدمت الدين اليهودي باعتباره رابطة قومية تصهر جميع اليهود في مختلف الثقافات فثمة شعب يهودي وقومية يهودية فقط، وهكذا كانوا يريدون، لقد نظر تيودور هيرتزل مؤسس الصهيونية إلى الدين اليهودي باعتباره بمثابة السجاد الثمين الذي يُسهِّل العبور إلى القومية ومقاومة توطين اليهود في البلاد التي يقيمون فيها، قال هرتزل في هذا، "سوف يقوم حاخاماتنا بتكريس جهودهم وطاقاتهم لخدمة فكرتنا، وسوف يغرسونها في نفوس الرعية اليهودية عن طريق الوعظ والإرشاد من منابر الصلاة، لن نسمح إذن بظهور أية نزاعات".

اعتبر ديفيد بن جوريون، أول رئيس حكومة لإسرائيل، أن الدين، "وسيلة مواصلات فقط، ولذلك يجب أن نبقى فيها بعض الوقت لا كل الوقت"، بمعنى أن الصهيونية كانت لا تريد أن تحكم الدولة بالدين، لكن جنين الدولة الصهيونية (إسرائيل) مر بفترة مخاض، سنرى كيف خرج إلى النور.

لهذا سنرى لماذا اهتمت أوروبا بترحيل اليهود إلى مكان خاص بهم، ولماذا سعى مفكروا اليهود وزعمائهم وأغنيائهم إلى التحالف مع أعداء السامية في أوروبا لإخراج العنصر اليهودي من أوروبا، ما الذي جعل اليهود يصحون على أنفسهم في القرن التاسع عشر الميلادي على وجه الخصوص لكي يشرعوا بطريقة غير عادية، ويبدأوا التفكير في البحث العملي عن وطن قومي؟ ما الذي دفعهم إلى

العمل السياسي المبرمج بعد أن انقطعت بهم السبل إلى فلسطين منذ منتصف القرن الثاني الميلادي؟ ما الذي يدفع يهود الخزر "الأشكناز" أو من أطلق عليهم يهود اليديشية، وهم غالبية يهود العالم إلى التفكير في دولة ووطن، بينما هم لا يرتبطون بفلسطين تاريخيًا على الإطلاق، فلا هم من نسل بني إسرائيل القدامى، ولا هم سكنوا فلسطين أصلاً.

إن ظهور البروتستانتية وانتشار "الصهيونية غير اليهودية" التي تؤمن بالتفسير الحرفي للتوراة، والتي تؤمن بأن اليهود سيجتمعون في فلسطين استعدادًا لعودة المخلص لكي يقوم بتنصيرهم، هو أحد الأسباب التي عملت على بعث الفكر العبري اليهودي، فقد ظهرت الكتابات المسيحية التي تدعو إلى تجميع اليهود في فلسطين لانتظار المخلص قبل تأسيس الحركة الصهيونية بسنين طويلة، من أمثال تلك الدعوة، ثورة القس "مارتن لوثر" (١٤٨٣- ١٥٤٦م) على الكنيسة الكاثوليكية، ومنهم "إسحاق نيوتن" (١٦٤٣- ١٧٢٧م)، و"جان جاك روسو" (١٧١٢-١٧٧٨م)، و"بريستلي" (١٧٣٣- ١٨٠٤م) وغيرهم.

وكان للثورة الفرنسية أثر كبير على الحريات وحقوق الإنسان حينما انتشرت شعاراتها في أوروبا، وهو ما أوجد لليهود فرصة للراحة والتنعم بالمساواة في المجتمعات الملكية الأوروبية التي كانت أنظمتها الحاكمة قاسية على اليهود، لقد شهدت تلك الفترة تحطيم أنظمة الجيتو اليهودية، وتحسنت مكانة اليهود السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

هذا، ولقد تأثر اليهود منذ أواخر القرن الثامن عشر بما يُعرف بحركة الاستنارة "الهيسكلا"، في أوساطهم، وكان أبرز مُنظّري الحركة "موسيس مندلسون" (١٧٢٦- ١٧٨٦م)، وهو فيلسوف يهودي ألماني، لقد دعت حركة الاستنارة اليهود إلى الاندماج الكامل في المجتمعات التي يعيشون فيها حيث قد أصبح لهم علاقات برجال السياسة في الدول مثل بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة، ذلك بعد أن سيطروا على الحركة الماسونية، كما وتمكنوا من اختراق المؤسسات

العثمانية كـ "حزب الاتحاد والترقي" الذي قام بإسقاط السلطان عبد الحميد الثاني الذي عارض الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

إلا أن انتشار ظاهرة القومية في أوروبا حيث أصبح لكل مجتمع أوروبي هوية وطنية، جعل اليهود يبدون في مجتمعاتهم غرباء خصوصًا في ألمانيا التي كان لهم فيها بناء كبير (جالية كبيرة، نشاط اقتصادي، تغلغلهم في وظائف الدولة)، وهو ما جعل الحاخامات والأحبار والزعماء الدنيويين اليهود يبحثون عن حل، خصوصًا وأن مشكلة هجرة اليهود الروس إلى أوروبا الغربية راحت تتكالب وتتعقد في تلك الفترة بسبب ازدياد العداء للسامية، لقد عملت كل هذه المحفزات مجتمعة أو متناقضة على ظهور فكر يهودي جديد يطمع في الوصول إلى أكثر من الحريات وحقوق الفرد في المجتمعات الأوروبية، فقد راح يهود أوروبا يتساءلون إذا كان كل بلد أوروبي له هوية عرقية ووطنية، فماذا عن اليهود الذين لهم لغة ولهم دين، وهو ما يؤكد اختلافهم عن الآخرين، وافترض بعض مفكريهم بأن الأمة اليهودية التي لها لغة ولها دين تختلف عن الآخرين ويلزمها مكان لكي تجتمع فيه، بل وأدى ظهور العداء للسامية إلى تفجير المشكلة اليهودية على مستوى أوروبا، وأدى اشتراك اليهود في الحركات اليسارية في روسيا إلى ازدياد عداء السلطات القيصرية الروسية ضد اليهود، وزاد الطين بلة حينما تم اغتيال قيصر روسيا ألكسندر الثاني سنة ١٨٨١م حينما اتهم في ذلك اليهود أيضًا، فظهرت موجة عداء شاملة لليهود في روسيا أطلق عليها اللاسامية، وصار التضييق على اليهود في روسيا من نواحي كثيرة فصدرت القوانين ضدهم..

اليهودي الذي يخرج من قريته لا يُسمح له بالعودة، وحق المواطنين الروس بطرد اليهود من قراهم، ومنع تشغيل اليهود في المناطق الريفية، واليهودي الذي يترك عمله ويشتغل بالتجارة تُلغى إقامته في روسيا، ومنع اليهود من الإقامة في موسكو، ومنعوا من حق الانتخاب في المجالس البلدية، كل هذا أدى إلى الهجرة الجماعية ليهود روسيا إلى أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية، وأدى إلى ظهور

المشكلة اليهودية حيث بلغ عدد اليهود الذين غادروا قراهم خلال ثلاث وثلاثين سنة حوالي مليونين ونصف، كما أن العداء لليهود في أوروبا الغربية أدى إلى نشوء الحركة الصهيونية التي تحمس لها الكثيرون في أوروبا.

إن بروز العوامل الاستراتيجية والسياسية للقوى الكبرى في العالم، قد لفت نظر اليهود إلى إمكان الاستفادة بتلاقي المصالح الصهيونية مع مصالح هذه القوى، كان "نابليون بونابرت" أول زعيم دولة يعرض إقامة دولة لليهود في فلسطين خلال الحملة الفرنسية على مصر، وهو ما فتح عيون بريطانيا على مصر وفلسطين وجعلها تفتح قنصلية لحماية اليهود في فلسطين، كما أن الأهداف الاستراتيجية السياسية الغربية اهتمت بأن تعمل على وضع دولة وظيفية ذيلية غربية كحاجز بين عرب أفريقيا وعرب آسيا، فقد عاش العالم الإسلامي الذي بدأه العرب ثلاثة عشر قرنًا من الصراع والتنافس والحروب مع الغرب، وحان الوقت لإنهاء تلك الأسطورة، فكان السؤال البارز هو كيفية ضمان ألا تظهر قوة إسلامية كبرى تحل مكان الدولة العثمانية حال سقوطها، وتُهدد من جديد مصالح الغرب ومطامعه! لذلك كانت فكرة إيجاد مادة بشرية تربط عضويًا بالغرب تكون حاجزًا بين العرب في منطقتهم، وحين ذلك أدركت الصهيونية أن مشروع الدولة الصهيونية لن يُكتب له النجاح إلا إذا كان تحت حماية ورعاية دولة كبرى، ولا بد من إيجاد ميثاق دولي كعقد لضمان هذه الدولة فكان وعد بلفور عام ١٩١٧م.

## الحركة الصهيونية:

لقد تعددت الاجتهادات والآراء ووجهات النظر في فهم أسباب إيجاد الحركة الصهيونية التي أدت إلى تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية، ولا شك بأن اختلاف الآراء لم يسمح أبدًا بتلاقيها، إنما كان يقبل أحيانًا بالصمت أو التغاضي مؤقتًا، إلا إنه لم يتجاهلها، بعض الرؤى ما زالت تنظر إلى الحركة الصهيونية على أنها إفراز من إفرازات الاستعمار الغربي وأنها لا تخرج عن كونها إحدى أدواته، ويرى آخرون بأن الصهيونية ببساطة ما هي إلا وسيلة يهودية –

أوروبية لحل المشكلة اليهودية في المجتمعات الأوروبية، كما أن البعض يرى بأنها لا تتعدى أن تكون تعبيرًا عن الأماني الدينية أو القومية أو الثقافية لليهود، وهي عبارة عن نتيجة تفاعل الجاليات اليهودية في المجتمعات الغربية، وكثيرون أيضًا يعتبرون أن كثافة الهجرة اليهودية من روسيا وبولندا إلى أوروبا الغربية كانت السبب الرئيسي الذي أطلق شرارة معاداة السامية التي دفعت إلى البحث عن وسيلة فالحاجة أم الاختراع، والبعض ببساطة يراها من زاوية دينية بحتة لأن الصهيونية هي اليهودية، فالصهيونية كعقيدة أيديولوجية بدون اليهودية لا تستطيع الصمود كون الصهيونية حركة علمانية تحمل في طياتها ضياع تحديد الهدف.

لعل جميع الرؤى ووجهات النظر والتفسيرات بينما نحن نقلب صفحات تاريخ الحركة الصهيونية تساعد في إلقاء الضوء على أحد أركان المشروع الصهيوني الذي توج في النهاية لكي يصبح دولة إسرائيل، فكل رأي أو اجتهاد أو تفسير أو وجهة نظر تحمل جزء من الحقيقة عن طبيعة المشروع الصهيوني، وعن الأسباب التي أوجدته.

الصهيونية ببساطة هي حركة سياسية يهودية تدعو إلى اشتقاق فكرة وطنية من الديانة اليهودية لكي تكمل العناصر الأساسية التي تقام عليها الدول، فإذا كان الدين اليهودي يميز معتنقيه فإن هؤلاء لا بد أن يكون لهم وطن يجمعهم على أساس الثالوث (اليهودية، وشعب الله المختار، وأرض إسرائيل) أو كما ذكر هذا مبهمًا في التوراة (العهد القديم)، لهذا لا بد من تسليط الضوء على ماهية الصهيونية.

يمكننا القول بإن الصهيونية منظمة تأسست بهدف تشجيع الهجرة الصهيونية نحو فلسطين وهي كحركة دينية تهدف إلي تمكين العنصر اليهودي من تملك أرض فلسطين وقهر جيرانها الأعداء، وتركيز لسلطة العالم الروحية والحضارية في صهيون، ولكن الصهيونية قديمة فقد بدأ ظهورها مع تحريف التوراة، فالنصوص المحرَّفة نفسها هي التي أججت الروح القومية عند اليهود منذ أيامها

الأولى، وحركة تيدور هرتزل (الصهيونية الحديثة) إنما هي تجديد وتنظيم للصهيونية القديمة سواء ما رافق العنصرية الدينية منذ تحريف التوراة أو ما حرك دهاقنة اليهود لكي يجيبوا على تساؤلاتهم في القرن السابع عشر، حينما تعرضوا للمضايقة في المجتمعات الأوروبية، هذا وتقوم الصهيونية على تعاليم التوراة المحرفة والتلمود، ولكن لا بد من الإشارة إلى أن عددًا من زعماء الصهيونية هم من الملاحدة، واليهودية عندهم ليست سوى ستار لتحقيق المطامع السياسية والاقتصادية خصوصًا أهل التيار القومي من الصهيونية الذين يمتازون بالغنى، والصهيونية في التراث الديني اليهودي تعني في العصر الحديث أنها حركة تحرير يهودي وطني وتستمد اسمها من صهيون، وصهيون هو اسم تلة في القدس وتعني العلامة أو الاحتفال، والاحتفال كما يدعي منظري الحركة الصهيونية هو أحد الشروط التقليدية لعودة اليهود المنفيين إلى أرض الميعاد.

هذا، والصهيونية في الحقيقة هي أيضًا حركة أيديولوجية يهودية لكنها غير متجانسة وتشمل على سبيل المثال، جمعية اشتراكية الصهاينة مثل بوروشوف الدينية التي تأسست في روسيا، وجمعية الحاخامات الصهاينة، وحركة القوميين مثل زئيف جابوتنسكي، والجماعة الثقافية الصهيونية، وسيأتي الحديث مفصلاً عن هذه الاتجاهات أو التيارات الصهيونية وعن فلاسفتها ومفكريها.

تطورت الأفكار الصهيونية عبر الزمن وكذلك الظروف التي تأثرت بها في البيئات الاجتماعية والثقافية والحركات الشعبية في أوروبا التي أحاطت بها في الأوقات المختلفة بما في ذلك الاشتراكية والقومية والاستعمار، وكان لكل فرع وجماعة وحركة نكهة مختلفة تبعًا لبلد المنشأ من المفكرين وتبعًا للمعاصرة السائدة بين مختلف التيارات الفكرية، وبناء عليه فإن لا شخص واحد أو نشرة واحدة يمكن القول على لسانها أو الاقتباس مما نشر عنها أو منها ينبغي أن يؤخذ باعتباره تجسيد رسمي لكي نُطلق عليه الأيديولوجية الصهيونية.

لهذا تُعتبر الأيديولوجية الصهيونية في الأدبيات اليهودية هي قصة نجاح من القرن العشرين، فقد كانت تبدو مستعصية على التغلب على العقبات التي تحول

دون تحقيق حلم مستحيل، لهذا سموها بالصهيونية الخبيثة، واستدركوا وقالوا إن الصهيونية الخبيثة هي ليست مؤامرة كما يصفها أعداؤها إلا أنها أثارت معارضة نظرًا لنجاحها، إن هذا التمهيد المختصر لا يناقش تاريخ الحركة الصهيونية، لكنه يشير من بعيد إلى كيف خلقت إسرائيل الحديثة، وبالتالي إعادة تشكل الصهيونية بوجه تقلبات العصر الحديث، إذن ببساطة يمكننا القول بإن الصهيونية هي منظمة يهودية تنفيذية، مهمتها تنفيذ المخططات المرسومة لإعادة مجد بني إسرائيل وبناء هيكل سليمان، ثم إقامة مملكة إسرائيل الكبرى والسيطرة من خلالها على العالم!

لا شك أن منبت الأيديولوجية الصهيونية يعود إلى أصول الديانة اليهودية التي اختارت فئة من البشر وخصتهم بمميزات على الآخرين، فبدل أن يكون الدين للناس كافة ينهل منه كل من يظمأ، صار هو يختار من يستحق، لهذا نجد في الأدبيات الصهيونية أن الاعتقاد الديني السائد، هو أن المسيح المخلِّص وهو ملك من نسل الملك داود سيأتي في أخر الزمان لكي يجمع اليهود من شتاتهم ويعود بهم إلى أرض الميعاد ويحكم العالم من جبل صهيون ويتخذ من أورشليم عاصمة له, وبعد ذلك يبدأ الفردوس الأرضي الذي سيدوم ألف عام، حيث يعم الخير والعدل والسلام كل العالم.

وهنا لا بد من الإشارة إلى يهود روسيا، لهذا يمكن القول بإن المسألة اليهودية نشأت أولاً في مناطق الإمبراطورية الروسية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لكنها تعود أساسًا إلى التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي راحت تدق الأبواب في روسيا القيصرية، نتج عن ذلك ما أطلق عليه في ذلك الوقت، المسألة اليهودية، وذلك بسبب الشروع في مضايقة اليهود ومعاداتهم من قبل الروس، نتيجة تشكل العلاقات الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع الروسي، التي جعلت من الصعب على اليهود بتركيبتهم الثقافية الاستمرار فيه، وهو ما قد يحدث من دون وعي من أفراد المجتمع الروسي الذي يعيش فيه اليهود في ذلك الوقت، لكن اليهود هناك بدلاً من إدراك تعدد الظروف الاجتماعية وتطورها، لم يغيروا من

طبيعتهم ولم يساهموا في ركب تطور المجتمع الذي كان يسعى إلى خدمة أفراده، وهو ما أدى إلى خلق مشكلة بين اليهود والأكثرية الأخرى، رأى فيها اليهود أن الآخرين يكرهونهم أو بما صار يطلق عليه باختصار معاداة السامية، دون أن يدرك اليهود أن ثمة عنصرًا إنسانيًا لا أحد يستطيع أن يعرف أين يتجه تاريخيًا أدى إلى حدوث ذلك التحول في المجتمع الروسي، إن ما جعل المشكلة اليهودية تصبح أكثر عمقًا في المجتمع الروسي، هو أن اليهود كأقلية لم يحاولوا أن ينظروا حولهم لكي يعرفوا الأسباب، فيعدّلون مساراهم بما يتوافق مع المجتمع الذي يعيشون فيه.

يمكن القول بإن البذور الأولى للصهيونية قد نشأت بين يهود روسيا حينما أصبح اليهود في روسيا ثلاثة تيارات، التيار الأول: رأى أن الحل هو الهجرة إلى دول أوروبا الغربية والعيش هناك، وتيار ثاني: هو الأقلية المثقفة من الثوريين التي رأت بأن علاج المسألة اليهودية هو أن يناضل هؤلاء كثوريين مع الروس لأجل تغيير المجتمع الروسي إلى الأفضل بحيث يكون لليهود مكان مقبول فيه، لكن هؤلاء كما ذكرنا كانوا أقلية بين الجالية اليهودية، أما التيار الثالث: فقد رأى أن يهاجر اليهود إلى فلسطين فهي مهد اليهودية حيث عاد إليها اليهود في سابق الأزمان قبل أن يطردوا منها أكثر من مرة، ومن أصحاب التيار الثالث "العيزر بن يهوذا" الذي دعى إلى الهجرة إلى فلسطين وقد ذكر هذا في كتاب "كونور كروز أبريان".

وحتى في القرن العشرين بعد أن صار لليهود الإسرائيليين دولة، فقد وجدت مشكلة أخرى في كوبا التي تزعمها "فيدل كاسترو"، وهي لا تختلف كثيرًا عما حدث لليهود في روسيا القيصرية، وقياسًا على ما حدث في كوبا يمكن تصور التفاصيل الكثيرة التي حدثت مع يهود روسيا أيام النظام القيصري ومعاداة السامية، المشكلة في كوبا حدثت بعد أن هاجر إليها بعض من يهود روسيا الثوريين ممن ضاقوا بحكم القياصرة في كوبا، استطاع هؤلاء اليهود أن يعيشوا عيشة راضية، نموا وأصابوا من الغنى ما أصابوا في البلد الجديد كوبا، كان

هؤلاء اليهود الثوريون أصدقاءًا طبيعيين لثورة الكوبيين على نظام "باتستا" البائد الذي انتصر عليه كاسترو بل إنهم ساعدوا ثورة "فيديل كاسترو" قبل انتصار الثورة بل إنهم موَّلوا الثورة الكوبية.

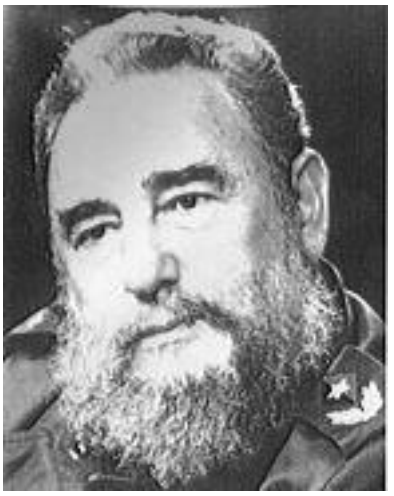

فيدل كاسترو Fidel Castro

بعد نجاح الثورة الكوبية وأخذها بمنهج الاشتراكية بقيادة كاسترو نفسه، وراحت تطبقه في المجتمع، وصدرت قرارات التأميم، وتم القضاء على الملكيات الكبيرة، تأثر اليهود بما أتت به الثورة من تحولات اجتماعية، فكان في كوبا أيضًا مسألة يهودية جعلت اليهود يخافون على مصالحهم وامتيازاتهم، فراحوا يغادرون كوبا حاملين معهم أموالهم، فكان من الطبيعي أن يكرههم المجتمع الذي كان يحبهم قبلاً حينما كانت المصالح الاقتصادية والفائدة تعود على الطرفين، إن البنية الاجتماعية والاقتصادية في كوبا كانت جاذبة للأقلية اليهودية قبل انتصار الثورة الكوبية، وبعد ذلك صارت طاردة لهم بعد انتصار الثورة دون أن يكون المقصود هم اليهود بالذات، وقد رأينا أن كثيرًا من الأقليات والأعمال غادرت كوبا بعد انتصار كاسترو.

ما حدث في كوبا كان مثالاً بسيطًا لما حدث من تعقيد وتشعبات بين المجتمع الروسي والأقلية اليهودية هناك حتى كبرت المسألة وأصبحت مشكلة طالت الغرب

والشرق في آن واحد، كانت هناك المسألة الشرقية التي تجسدت بتمزيق الإمبراطورية العثمانية، والمشكلة اليهودية التي نتج عنها وعد بلفور، وثورة أكتوبر الاشتراكية.

لا شك بأن اضطهاد اليهود الروس كان له أثر كبير في هجرة كثير من يهود روسيا إلى أوروبا الغربية، وساهم هذا كثيرًا في شحن العقول اليهودية بطاقة دفعت إلى الإسراع بالتحضير لمؤتمر صهيوني عالمي، إلا أنه من الجدير بالذكر أن اليهود العلمانيين كانوا الأكثر نشاطًا وفاعلية وقدرة على الفعل من اليهود الروس الذين تركوا بصماتهم في إنجازات الصهيونية العالمية في القرن العشرين، اثنان كلاهما ولد في روسيا، "حاييم وايزمان" الذي ولد في "موتول" سنة ١٨٧٤م في غرب روسيا قرب الحدود البولندية، و"ديفيد بن جوريون" الذي وُلِد في "بلونسك" بروسيا البولندية قريبًا من وارسو في سنة ١٨٨٦م.

كان "حاييم وايزمان" من المتحمسين للصهيونية، وقد بدا هذا في كتابه "التجربة والخطأ"، حيث ذكر عن حال اليهود أيام طفولته في روسيا، فقال كنا غرباء عنهم وهو يقصد الروس، غرباء من ناحية التفكير والأحلام والدين والاحتفالات الخ. ولقد أشرنا بتوسع إلى حاييم وايزمان وديفيد بن جوريون وإلى ما فعلا من أجل الصهيوينة كلٌ في ميدانه في أكثر من مكان في هذا الكتاب.

لكن من المهم أن يعلم القارىء، بأنه لم يكن ممكنًا للحركة الصهيونية الحديثة، بأن ترى النور لولا ارتباطها العضوي بالحضارة الغربية، وأن شرط أوروبا لقيام دولة صهيونية، هو تلاؤم هذه الدولة مع المصالح الغربية، في الماضي نشأت حركات صهيونية عبر التاريخ، كان زعماؤها أو قادتها قد دعوا وحاولوا أن يقيموا وطنًا لليهود في القدس، لكن المحاولات لم تنجح، وسرعان ما كان يقضى عليها بسبب غياب القوة العظمى المتنفذة التي تساند وتساعد وتحمي وتخلق دولة، لكن حينما وجدت القوة العظمى أصبح كل شيء ممكن، من الحركات اليهودية التي سجلها التاريخ وتشير إلى الجذور الصهيونية: ورد لفظ صهيون لأول مرة، عندما ذكر الملك "داود" في العهد القديم حينما أسس مملكة عام

١٠٠٠-٩٦٠ ق.م قبل السبي البابلي، وفي العهد الروماني كانت حركة "باركوخيا" ١١٨-١٣٨م الذي تحمس وسعى إلى تأسيس دولة لليهود في القدس، وبعد ذلك كانت حركة "موزس الكريتي" الشبيهة بحركة باركوخيا، ثم حركة "دافيد روبين" وتلميذه "سولومون مولوخ" ١٥٠١-١٥٣٢م الذي حثَّ اليهود على العودة للقدس، وبعد ذلك كانت حركة "منشه بن إسرائيل" ١٦٠٤-١٦٥٧م التي اتجهت ناحية بريطانيا لتحقيق هدفها، في تركيا كانت حركة "شبتاي زئيفي" ١٦٢٦-١٦٧٦م الذي ادعى أنه المسيح المخلص، هذا وسنأتي بالحديث عن أهم هذه الحركات بشيء من التفصيل.

لقد ظهرت عبارة "الصهيونية" لأول مرة في العصر الحديث في الكتاب الذي أصدره المفكر الصهيوني الألماني "ناتان بيرنباوم" ونشره عام ١٨٩٣ م تحت عنوان "البعث الثقافي للشعب اليهودي في أرضه كوسيلة لحل المشكلة اليهودية". وقد استعمل بيرنباوم لفظة "الصهيونية" بدلاً من عبارة "القومية اليهودية" التي كانت سائدة آنذاك في كتابات المفكرين والكُتَّاب الصهاينة الأوائل، دُعاة تأسيس الدولة اليهودية، وفي هذا الكتاب كما في صحيفة "التحرر الذاتي"، أعاد بيرنباوم طرح الأفكار التي سبقه إليها عدد من دعاة الصهيونية، أهمهم:

## الحسيدية:

حسيدوت بالعبرية أو الحسيدية، هو مصطلح بمعنى التقي، وهو يشير إلى بعض الفرق الدينية في العصور القديمة والوسطى، ويشير إلى الحركة الحلولية الصوفية التي أسسها "بعل شيم طوف"، نشأت الحركة أولاً في جنوب بولندا وقرى أوكرانيا في القرن الثامن عشر، وانتشرت منها إلى وسط بولندا وليتوانيا وروسيا البيضاء ثم إلى المناطق الشرقية من الإمبراطورية النمساوية المجرية، وبحلول عام ١٨١٥م أصبحت الحسيدية عقيدة أغلبية الجماهير اليهودية في شرق أوروبا، بل ويقال إنها صارت عقيدة نصف يهود العالم آنذاك إلى جانب أنها كانت عقيدة أغلبية يهود اليديشية.

يرجع نجاح الحسيدية إلى أسباب اجتماعية وتاريخية، فالجماهير اليهودية كانت تعيش في بؤس نفسي وفقر اقتصادي شديد بسب التدهور التدريجي للاقتصاد البولندي مثلاً، وصاحب هذا الوضع تدني الحياة الثقافية والدينية داخل الجيتو اليهودي إلى درجة كبيرة، وأصبح اليهود يعيشون في شبه عزلة عن العالم، بل في عزلة عن المراكز التلمودية في المدن الكبرى، كانت اليهودية الحاخامية قد تحولت إلى عقيدة شكلية، خالية من المضمون الروحي والعاطفي، فمن المفارقات أن أعضاء الجماعات اليهودية، بعد أن عاشوا بين فلاحي أوكرانيا وشرق أوروبا لمئات السنين، بعيدًا عن المؤسسات الحاخامية في المدن الكبرى والمدن الملكية، تأثروا بفولكلور فلاحي شرق أوروبا، وبمعتقداتهم الشعبية الدينية، وبوضعهم الحضاري المتدني بشكل عام، بل ويبدو أن الحسيدين تأثروا بالتراث الديني المسيحي خصوصًا تراث جماعات المنشقين، وأقرب الجماعات المسيحية المنشقة إلى الحسيدية هي جماعات الخليستي، وقد ذهب قادة هذه الجماعة إلى أنه حينما صُلب المسيح ظل جسده في القبر، وأما البعث فهو هبوط الروح القدس بحيث تحل في مسيح آخر هو قائد الجماعة، ولذا قادتهم مسحاء (جمع مسيح) قادرون على الإتيان بالمعجزات، يحل فيهم الإله، وفي هذا المناخ ظهر الدراويش الذين يحملون اسم "بعل شيم"، أي "سيد الاسم"، وهم أفراد كانت الجماهير البائسة تتصور أنهم قادرون على معرفة الأسرار الباطنية وإرادة الإله، وهكذا ظهرت الحسيدية بحلوليتها المتطرفة وبريقها الخاص ورموزها الشعبية الثرية التي تروي عطش الجماهير اليهودية الفقيرة التي كان يخيم عليها التخلف، لهذا كان التصادم بين الحسيدية والمؤسسة الحاخامية حتميًا، كانت الحسيدية تحاول أن تحصل على قسط من الحرية وقسطًا من المشاركة في السلطة، وهي محاولة لكسر احتكار المؤسسة التلمودية للسلطة الدينية، وقد انعكس هذا التصادم على المستوى الفكري، حين قام الحسيديون بالتقليل من شأن الدراسة التلمودية أو دراسة التوراة، فإذا كان التصوف هو التأمل في الإله والتوحد معه وعبادته، فلا وقت عند الإنسان لدراسة التوراة على الطريقة الحاخامية.

وبهذا قلب الحسيديون الأمور، وقالوا إن الإله بحاجة إلى الشعب اليهودي ككل، وقد ذهبوا إلى القول أيضًا إلى أنه لا يوجد ملك بدون شعب، وعلى ذلك فإن ملك اليهود في حاجة إليهم، ولهذا تقل أهمية الأوامر والنواهي من خلال حاجته إليهم، ونجحت الحسيدية في تحقيق بعض الاستقلال عن الحاخامية فعدَّل أتباعها من طقوس العبادة والشعائر وصار لهم معابدهم الخاصة، وصار المفهوم الفكري للحسيدية أنها يهودية تساديكية نسبة إلى التساديك الذي يقوم بالوساطة بين أتباعه والإله، وهكذا صار للحسيدية بيروقراطية دينية لها مصالحها الخاصة.

انقسمت الحركة الحسيدية بعد ذلك إلى فرق متعددة، بعضها اتجه اتجاهًا صوفيًا عاطفيًا محضًا، في حين اتجه بعضها الآخر، اتجاهًا صوفيًا ذهنيًا يعتمد على دراسة كل من القبالاه والتلمود، كما أن وجود هؤلاء الحاخامات داخل دول مختلفة قد زاد من هذا الانقسام، وفي الحرب النابليونية ضد روسيا بعض الحسيدين أيَّدوا نابليون ضد روسيا وبعضهم أيَّد روسيا، ومن المعلوم أن النازية كانت قد قضت على المراكز الحسيدية الأساسية في شرق أوروبا، وأما الحركة فقد انتقلت إلى الولايات المتحدة مع انتقال يهود اليديشية إليها.

هذا، وإن أغلب المفكرين الصهاينة إما نشأوا في بيئة حسيدية، أو تعرفوا على فكرها الحلولي عشوائيًا، بل إن الصهيونية هي ضرب من الحسيدية اللادينية أو الحسيدية داخل إطار حلولية بدون إله ووحدة الوجود المادية، ولهذا يقال إن الدارس المدقق يكتشف بسهولة أن هناك تشابها بين الحسيدية والصهيونية، فالجماهير التي اتبعت كُلاً من الصهيونية والحسيدية كانت في وضع طبقي متشابه، أي جماهير توجد خارج التشكيلات الرأسمالية القومية بسبب الوظائف المالية والتجارية التي اضطلعت بها، لذلك نجد أن جماهير الحسيدية شأنها شأن جماهير الصهيونية، تتفق على حب صهيون، الأرض التي ستشكل الميراث الذي سيمارسون فيه شيئًا من السلطة.

لقد عملت الحسيدية على إضعاف انتماء يهود اليديشية الحضاري والنفسي إلى بلادهم، وهذه نتيجة طبيعية لأية تطلعات مشيحانية، الأمر الذي جعل اليهود مرتعًا خصبًا للعقيدة الصهيونية، الحسيدية والصهيونية تؤمنان بحلولية متطرفة تُضفي قداسة على كل الأشياء اليهودية وتفصلها عن بقية العالم، فكانت الهجرة الحسيدية تعبير عن النزعة القومية الدينية وفاتحة أو تمهيد للهجرة الصهيونية. إلا أن الفكرة الصهيونية لا تنصرف إلى السلوك الشخصي لليهودي وإنما إلى سلوكه السياسي، ولكي تتحقق الصهيونية لا بد أن تتجاوز حدودها الذاتية لتملك وطن وتستوطنه.

يُعتبر الحسيديون بعد قيام دولة إسرائيل من غُلاة المتشددين في المطالبة بالحفاظ على الحدود الآمنة والحدود المقدسة، والحدود التاريخية لأرض إسرائيل، رغم أن هناك بعض الفرق الحسيدية القليلة التي ما زالت تُعارض وجود دولة إسرائيل، من تلك الفرق جماعة ساتمار أو ناطوري كارتا (حراس المدينة) وقد أتينا على الحديث عن ناتوري كارتا في مكان آخر.

## موزيس هيس Moses Hess:

"موزيس هيس (١٨١٢ – ١٨٧٥م)"، هو منظر ورائد الصهيونية العمالية، ولد في ألمانيا، فقد كان أبوه بقالاً وأمه ابنة حاخام، كان عمره تسع سنوات حينما انتقل إلى بيت جده الذي تعلم على يديه اللغة العبرية والديانة اليهودية، اهتم هيس بالتاريخ والفيزياء والأدب الفرنسي ودرس الفلسفة في الجامعة إلا أنه لم يحصل على درجة علمية، لم يهتم هيس بالقضايا اليهودية إلا في مرحلة متأخرة من حياته، قضى معظم حياته في باريس، أحب فتاة مسيحية تعمل بالدعارة، وأجَّل زواجه منها لمدة عام لكي يضمن حقه بالميراث بعد وفاة والده سنة ١٨٥٢م.

موزيس هيس، مؤلف كتاب "روما والقدس" (١٨٦٢م)، دشن صدور هذا الكتاب مرحلة انعطاف هامة في تاريخ الدعوة الصهيونية للعودة إلى فلسطين واستيطانها وتأسيس "مملكة إسرائيل"، لأنه أول كتاب يؤلفه مفكر يهودي يدعو إلى غزو فلسطين، وقد سبقت هذا الكتاب كتب كثيرة تدعو إلى استيطان اليهود في فلسطين، ولكنها جميعًا لمؤلفين غير يهود، ولأنه أول كتاب يؤلفه مفكر يهودي لإعادة اليهود إلى "وطنهم التاريخي" الافتراضي الذي يمتد من السويس إلى القدس، ومن الأردن إلى البحر الأبيض المتوسط وذلك "تحت رعاية فرنسا حامية اليهود"، وقد دشن هذا الكتاب مرحلة انتقال الدعوة الصهيونية من أيدي غير اليهود وأقلامهم إلى اليهود.

موزيس هيس ١٨١٢ – ١٨٧٥م

كان له اتصالات بالأوساط الاشتراكية، فقد كان صديقًا لـ "كارل ماركس" و"فردريك إنجلز"، لكن صداقته لم تدم طويلاً بعد أن اختلف معهما، كان عضوًا في أحد المحافل الماسونية وكان ينشر كتاباته في إحدى مجلاتها، وكانت أهم مصادر

تفكيره هي الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية، في مقتبل العمر اهتم بالدين المسيحي والحضارة الغربية، وكان يؤكد أهمية ألمانيا مثل نوردو وجابوتنسكي اللذان كانا أيضًا يقدران أهمية ألمانيا، في عام ١٨٦٢م نشر كتابًا سماه في البداية "حياة إسرائيل" ثم عدَّل الاسم إلى "روما والقدس"، وتردده بين الاسمين كان يعني أن الاسم الأول هو حلولي ديني له بعد يهودي، والثاني حلولي غربي استعماري، فهو يرى أن هناك علاقة بين بعث روما في الغرب وبعث القدس في الشرق، وأن هناك علاقة ما بين الحركة القومية العضوية والحركة الصهيونية.

تحدث هيس عن الثورة الفرنسية كبعث جديد وكعلامة مميزة في تاريخ الغرب، بهذا استطاع هيس بأن يصنف الصهيونية تصنيفًا صحيحًا وليس باعتبارها تنبع من التاريخ اليهودي وإنما هي ظاهرة تنبع من تقلبات التاريخ الغربي الاستعماري.

صرح هيس في بداية حياته، بأن شريعة موسى ماتت وأن اليهود إذا كان عليهم أن يختاروا دينًا فهو المسيحية لأنها أكثر ملاءمة للعصر الحاضر، لأنها دين يهدف إلى توحيد كل الشعوب، وليس كاليهودية التي تدعو إلى توحيد شعب واحد، كان هيس ينظر للأديان بصفة عامة على أنها مرض وخطأ إنساني جماعي، والدين ما هو إلا حالة مرضية.

وفي مخطوطة أخرى نشرها هيس، قال إنه يرى اليهود والصينيين حفرية تاريخية لها ماض وليس لها مستقبل، بحيث أصبح الصينيون جسدًا بلا روح وأصبح اليهود روحًا بلا جسد، ولذا فهو يرى أن الشعب المختار لابد أن يختفي إلى الأبد، فمن اختفائه قد تظهر حياة جديدة ثمينة. وقد صدرت له كراسة عن رأس المال (١٨٤٥م)، وهي تزخر بالإشارات المعادية لليهود وتشير إليهم كعبدة للمال، ثم يذكر هيس الحقيقة الأساسية في أوروبا في عصره وهي أن الشعوب الأوروبية اعتبرت وجود اليهود بينها شذوذًا، ولذا سيبقى اليهود غرباء أبدًا لا يمكنهم الالتحام العضوي بأوربا، شعبًا منبوذًا ومُحتقرًا ومُشتَّتًا؛ شعبًا هبط إلى مرتبة الطفيليات التي تعتمد في غذائها على الغير؛ شعبًا ميتًا لا حياة له.

كان يريد هيس أن يصل من آرائه إلى صيغة المخرج من هـذا الوضـع، وهـو الصيغة الصهيونية الأساسية التي تلتف على الانتقادات السالفة لليهود، وتطـرح فكرة الشعب العضوي المنبوذ، الذي يمكن حل مشكلته عن طريق توظيفـه فـي خدمة الحضارة الغربية التي نبذته، ويبين هيس أن اليهود عنصر حركي نـافع، فمبدؤهم الرئيسي أن "موطن المرء حيث ينتفع"، هذا هو دينهم، وهو أعظم مـن كل ذكرياتهم القومية إذ يرى أن اليهود متميزون باجتهادهم الصناعي والتجاري، ولذا فقد أصبحوا مهمين للأمم المتحضرة التي يعيش فيها اليهود، وأصبحوا أمرًا لا يمكن الاستغناء عنه لتقدُّم هذه الأمم، وهذا هو الوصـف الصـحيح للجماعـة الوظيفية على مدى تاريخهم.

وكون اليهود جماعة وظيفية فيجب إعادة إنتاجهم على هيئة شعب عضوي حتـى يمكن ملاءمتهم مع الهدف الأوروبي من المشروع الصـهيوني لأجـل أن يكـون لأوروبا قدم على أرض المشروع، وحيث إن الانتماء القومي هو فـي الأسـاس انتماء عرقي، فإن العرق اليهودي عرق رئيسي في الجنس البشـري كونـه قـد حافظ على وحدته كما يقول هيس رغم التأثيرات المناخية عليـه، وهنـا هـيس يفتخر بانتمائه اليهودي، لكن الحقيقة أن اليهود ليسوا عرقا واحدًا، وسنرى ذلك أيضًا في صفحات أخرى في الكتاب.

لقد بيَّن هيس أن الروح المقدَّسة والعبقرية الخلاقة للشعب توحده، وقـد نبعـت منهما الحياة الإثنية والعقيدة اليهودية، أي أن القومية العضوية أو روح الشـعب أسبق من الدين، وهو بهذا يرى أن الشعب هو المركز الوحيد للحلول (للتقديس)، ومن ثم فهي حلولية بدون إله، وهكذا تكون قد تمـت إعـادة إنتـاج الجماعـة اليهودية في الغرب على هيئة شعب عضوي لا تقبله أوروبا، وأن طرح المشـكلة على هذا النحو يشير إلى الحل، وهو نقل الشعب الذي نبذه العالم الغربي وتوطينه في الشرق، لكي يقوم على خدمة الغرب، ومن ثم يصبح اليهود جزء من التشكيل الاستعماري الغربي بعد أن فشلوا في الانتماء إلى التشكيل الحضاري الغربي.

ويصل هيس إلى فكرة الدولة الوظيفية، فيقول: اليهود سيذهبون إلى أرض الأجداد داخل إطار الحضارة الغربية الاستعمارية، ويرى هيس أن اليهود ينبغي عليهم ألا يطالبوا الإله بأرض الأجداد من خلال الصلاة، وإنما يجب عليهم أن يتحلوا بالشجاعة ويطلبوا هذه الأرض من الإنسان الغربي، وأن ينسلخوا عن اليهودية وينخرطوا في التشكيل الاستعماري الغربي، لهذا يمكن القول بإن هيس باعتناقه هذا الرأي فهو صهيوني يهودي غير يهودي.

ويتوصَّل هيس إلى مفهوم الصهيونيتين، فيميز بين يهود الشرق ويهود الغرب، فالمشروع الصهيوني لا يعني أن يُهاجر يهود الغرب كلهم إلى فلسطين، ذلك أن أغلبية اليهود الذين يعيشون في بلدان متمدنة في الغرب لابد أن يبقوا في بلادهم بعد تأسيس دولة يهودية، فقد نجحوا في شق طريقهم بجهد بالغ وحققوا لأنفسهم مركزًا اجتماعيًا وسوف لن يتخلوا عن أي نجاح حققوه، ولكنهم مع هذا سيساندون الشعب اليهودي من شرق أوروبا (أي يهود اليديشية) في مهمته التاريخية، أي أنه حدد لهم دورهم في الحركة الصهيونية باعتبارها صهيونية توطينية، أما في تلك البلاد التي تؤلف الخط الفاصل بين الغرب والشرق، أي روسيا وبولندا وبروسيا والنمسا وتركيا، فالملايين من إخواننا يتضرعون إلى الإله بحماس كي يعيد المملكة اليهودية، فهم من سيسكنون إسرائيل (الصهيونية الاستيطانية).

وفيما يتصل بالسكان الأصليين (الفلسطينيين)، فهناك ما يشبه الصمت بشأنهم، وحينما تحدَّث هيس عن الأعراق في أوروبا، فقد تحدَّث عن اختلافها لا عن تفاوتها، ولكنه حينما انتقل إلى الشرق فإنه يؤكد التفاوت فيما بينها حتى يُكسب مشروعه الصهيوني الشرعية الغربية الإمبريالية اللازمة، فاليهود سيجلبون الحضارة للمتخلفين في الشرق وعليهم أن يعملوا على تثقيف القطعان العربية المتوحشة والشعوب الأفريقية وأن يجعلوا القرآن والإنجيل يتحلقان حول التوراة، وقد وصف الزعيم الإصلاحي الصهيوني "أبراهام جايجر" كتابات هيس بأنها "ليست الولادة لعصر جديد، بل القبر المفتوح لعهد مضى".

ساهم هيس في بعض الأعمال التمهيدية للاستيطان في فلسطين، فاشترك في تحقيق مشروع المدرسة الزراعية قرب يافا الذي تبنته الأليانس، نشر هيس كتابات أخرى عن الاشتراكية، وتوفي عام ١٨٧٥م، ونقل رفاته إلى إسرائيل.

وبينما دشن كتاب موزيس هيس مرحلة الدعوة الصهيونية من أقلام غير اليهود إلى اليهود، فإن كتاب الصهيوني "ليو بنسكر" دشن مرحلة انتقال الصهيونية من الدعوة إلى الحركة، ويتفق معظم المؤرخين والدراسيين للحركة الصهيونية على اعتبار عام ١٨٨٢ م عامًا فاصلاً في تاريخ الحركة الصهيونية، لأن هذا العام شهد التطورات التالية:

أ. تولت مجموعات من الصهاينة أنفسهم تحقيق الفكرة الصهيونية عبر تنظيمات سياسية.

ب. بدأ صراع طويل بين اليهود الصهيونيين، واليهود غير الصهيونيين الذين رفضوا الانفصال عن مجتمعاتهم والتعلق بأفكار قومية برجوازية شوفينية.

ج. ظهرت أولى المجموعات الصهيونية السياسية الداعية إلى الهجرة إلى فلسطين واستيطانها تدريجيًا تمهيدًا للاستيلاء عليها، وأهم هذه المجموعات "أحباء صهيون" و"بيلو".

## ليوبنسكر Leo Pinsker :

"ليو بنسكر"١٨٢١ – ١٨٩١م" طبيب روسي استيطاني تسللي يتبع التيار المستقل الذي سعى إلى إنشاء دولة لليهود تتبع الحياد بين الدول، بدون انتظار المساعدة من الدول العظمى في إقامتها، ولد ليو نبسكر في روسيا، وكان أبوه مدرسًا وعالمًا، كما كان يعمل بالتجارة وقد انتقل إلى مدينة أوديسا بعد فشله في أعماله التجارية في جاليشيا، وكانت أوديسا مدينة روسية جديدة تتسم بارتفاع معدلات العلمنة والاندماج بين أعضاء الجماعة اليهودية، فتزود بنسكر بثقافة

روسية علمانية وعرف أفكار حركة الاستنارة اليهودية، كما تعلَّم بنسكر اللغة الألمانية (وهي لغة الحديث في المنزل) وتعلَّم قليلاً من العبرية.

ليو بنسكر ١٨٢١ – ١٨٩١م

درس الحقوق في أوديسا ودخل جامعة موسكو لينال منها شهادة طبية، كتب عدة مقالات في راسيفيت وهي أول مجلة أسبوعية يهودية تصدُر بالروسية (بدأ نشرها عام ١٨٦٠م)، وكتب أيضًا في مجلات يهودية أخرى ذات طابع اندماجي، خدم بنسكر في الجيش الروسي.

يعتبر "ليو بنسكر" من الطلائع النشطين في الحركة الصهيونية "هوفيفي زيون" التي أسسها ورأسها، درس بنسكر القانون ولما لم يجد فرصته لكي يعمل محاميًا بسبب نظام تحديد عدد المهنيين اليهود في المجتمع الروسي آنذاك، اتجه لدراسة

الطب، وفي بداية نشاطه اليهودي كان يدعو إلى المساواة واندماج اليهود في المجتمع، ثم دعا اليهود إلى تعلم اللغة الروسية.

كانت مذابح عام ١٨٧١م في روسيا التي جرت ضد اليهود السبب الذي جعل بنسكر يتحول لكي يصبح ذو رأي بين اليهود بعد أن ارتفع مستوى معادة السامية في المجتمع الروسي، منذ ذلك الحين تبدلت مفاهيم بنسكر وصار يرى أن مجرد الإنسانية والتنوير لا تكفيان لمحو العداء في المجتمع الروسي ضد السامية، في عام ١٨٨٤م عمل مؤتمرًا دوليًا أطلق عليه "هابات صهيون"، بعد ذلك دعي لزيارة أوروبا الغربية من قبل أغنياء اليهود لشيوع كتابه "هيا إلى الانعتاق" الذي أثار في ذلك الحين ضجة بين اليهود بين مؤيد ومعارض، ثم دعا أن يكون لليهود وطنًا قوميًا يتجمعون فيه، إلا أن بنسكر ومثيله من الرعيل الأول من الصهاينة لم ينظروا إلى فلسطين لكي تكون الوطن القومي لليهود.

مع تعثر التحديث في روسيا وصدور قوانين مايو ١٨٨٢م، تغيَّر موقفه بشكل جوهري وعدل عن كثير من آرائه، وبدأ الشك يساوره في مقدرة الاستنارة وحدها على حل مشاكل اليهود، وبدأ في التجوال في عواصم أوروبا للدعوة لفكرته بشأن الدولة الصهيونية، فقابل الحاخام أدولف جلينك، حاخام فيينا الأكبر وصديق أبيه، فأشار هذا عليه بإخضاع نفسه للعناية الطبية، وقابل زعماء الأليانس وبعض القادة اليهود ولكنهم عارضوه، ومع هذا فقد ألَّف بالألمانية "كراسة الانعتاق" الذاتي، الذي كان عبارة عن تحذير من يهودي روسي لإخوته (١٨٨٢م)، الذي نُشر دون ذكر اسم المؤلف لأنه كان مُوجَّهًا أساسًا إلى يهود الغرب، والكراس يأخذ شكل المانفستو، ولذلك فإنه خال من أيِّ عمق، إلا أن كراس بنسكر تميز بأنه لا ينظر إلى اليهود من الداخل باعتبارهم جماعة مستقلة (كما يفعل بعض مثقفي يهود اليديشية) وإنما ينظر إليهم من الخارج كما ينظر إليهم الصهاينة غير اليهود، وقد تعلَّم بنسكر تعليمًا غربيًا وكان ذا هويَّة غربيَّة، واليهود واليهودية بالنسبة إليه موضوعًا للدراسة أساسًا، وهويَّة فُرِضَتْ عليه فرضًا من الخارج،

وعلى أية حال، فبالإمكان تصنيفه على أنه صهيوني يهودي غير يهـودي كونـه نظر إلى اليهود من الخارج كما فعل الصهاينة من غير اليهود.

أعلن بنسكر ضرورة التخلص من موقف الانتظار وضرورة الثورة ضد الشـعور الديني القديم الذي يدفع اليهود إلى تقبُّل وَضْعهم ووجودهم في المنفى باعتبـاره عقابًا أنزله الإله بهم، "فشعب الله المختار إن هـو إلا شـعب مختـار للكراهيـة العالمية"، ولذا يجب على اليهود التخلي عن الفكرة المغلوطة القائلة بإن اليهـود بتشتتهم هذا يحققون رسالة إلهية، فتلك الرسالة لا يؤمن بها أحد، وقدم بنسـكر طرحًا مغايرًا تمامًا للرؤية الدينية، فهو يعيش في بلاد لا تعترف بـه ابنًـا لهـا، فالألماني الفخور بصفاته التيوتونية (الفرنسي والألمـاني) والسـلافي الفخـور بصفاته السلافية وغيرهم لا يعترفون بأن اليهودي يتساوى معهم بالمولد، فهـذه القوميات العضوية تجعل الانتماء القومي مسألة عضوية موروثة.

وبنسكر كان يرى بأن اليهود رغم أنهم شعب عضوي، إلا أنهم يفتقرون إلى كثير من الصفات القومية العضوية، لغة وعادات مشتركة وأرض مشـتركة، كمـا أن ليس لهم وطن أصلي ولا حكومة تمثلهم، وأصبحوا بـذلك شـعبًا ميتًـا فقـدوا استقلالهم وتحولوا إلى حالة التعفن التي لا تسـتطيع مسـايرة العضـو الحـي المتكامل، وهم "شبح" يأتي من عالم الأموات، "إننا قطيـع منتشـر فـي أرجـاء المعمورة دونما راع يحمينا ويجمعنا معًا، أما في أحسن الظروف، فقد نصل إلـى مرتبة الماعز التي تبيت (حسب التقليد الروسي) في إسطبلات الخيل"، وإذا بقيت الظروف على ما هي عليه "فسنظل طفيليين نعتمد في معيشتنا على بقية السكان"، فما دام اليهود عنصرًا قوميًا غريبًا، ضيوفًا على أمم مضيفة، فإنهم سيظلون محط كراهية كل الشعوب لأن الناس تخاف من الأشباح.

وما الحل الآن؟ يرفض بنسكر مرة أخرى الحلول التقليدية مثل الهجرة الفرديـة، "كافحنا عبر القرون بجهد كي نحيا لكن كأفراد وليس كأمة"، ويرفض بنسكر فكرة الاستيطان الديني التقليدي الذي كان يُموَّل بأموال الصدقة (الحالوقاه)، فمشروعه

الصهيوني المقترح لا يتم "بجمع التبرعات من الحجاج والهاربين الذين سينسون وطنهم ومن ثم سيضيعون في أعماق غربة أرض مجهولة".

الحل هو التخلص من اليهود من خلال تصفيتهم، ومن اليهودية من خلال التخلي عنها تمامًا، "نحن نرضى التخلي عن (رسالتنا الإلهية) إذا أمكن محو اللقب الممقوت (يهودي) من ذاكرة الإنسان" (كتاب زعماء صهيون)، وقد ذكر بنسكر هذه الكلمات في لحظة غضب، ولكنه يهدأ ويبدأ في اقتراح الطرق المنهجية الكفيلة بتحقيق هذا الهدف "لابد أن تتعامل الأمم مع أمة يهودية" ولابد من "خَلق مأوى دائم"، و"الطريق الوحيد الصحيح لإصلاح الوضع هو خلق قومية يهودية مؤلفة من شعب يعيش على أرض يملكها"، أما بالنسبة إلى آليات هذا الحل، فهو أولاً لن يأتي من الإله وإنما سيتم بالانعتاق الذاتي (عنوان كراس بنسكر)، ويقول بنسكر إن الجو العام في أوروبا قد خلق مناخًا مواتيًا لحركة البعث القومي، فالفكرة القومية في كل مكان، كما أن اليهود يشعرون بالبؤس في كل مكان أيضًا، ولكن الحل الذي يطرحه بنسكر لنقل اليهود خارج أوروبا يثير عدة مشاكل من بينها أن الشعوب التي نالت استقلالها مؤخرًا هي أمم عاشت على أرضها وكانت تتكلم لغة واحدة، فكان لها بذلك أرض، أما اليهود فلا أرض لهم، ولابد من خلق هذه الأرض.

حينما كان بنسكر يفكر في الحركة القومية، كان أيضًا يفكر في تقسيم الدولة العثمانية، فالأرض هي فلسطين، وإن تحرير اليهود واجب كواجب تحرير الزنوج، ومع هذا، فإنه يضيف أن اليهود ينتمون إلى عرق متقدم وليسوا زنوجًا، أي أنهم عنصر استيطاني أبيض، ومعظم البلاد المتحضرة سوف لا تقبل هجرة اليهود الجماعية إليها، أي أن الدول الغربية ستوقف سيل يهود اليديشية إليها.

أهم ما قال بنسكر هو حديثه عن الأرض فهو يقول يجب ألا يكون الحديث عن الأرض المقدَّسة وإنما عن مجرد أرض نملكها، أرض ذات مركز جيد ومساحة كافية لإسكان عدة ملايين، لذا إن علمانية المصطلح وحداثته كان أمرًا جديدًا، ومع هذا، تدارك بنسكر وقال بعد ذلك، قد تعود الأرض المقدَّسة لنا، فإذا حدث

هذا الشيء فهو أفضل بمعنى أنه لا يرفض تمامًا الصهيونية الإثنية ويترك الباب مفتوحًا أمامها، وتوقَّع بنسكر معارضة معظم اليهود، ولذلك حاول أن يكون برنامجه أكثر وضوحًا وتفصيلاً إذ يفرِّق بين صهيونيتين، فقسَّم اليهود إلى غربيين مندمجين سعداء، وشرقيين (بؤساء).

ويمكن القول بإن كثيرًا من عناصر الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة قد ظهرت في كراس بنسكر، ومن هنا أهميته في تاريخ الفكر الصهيوني، فقد أسقط المقولات الدينية التقليدية ونزع القداسة عن اليهود واقترح ربط المسألة الشرقية بالمسألة اليهودية باعتبارهم شعبًا عضويًا منبوذًا وعنصرًا استيطانيًا أبيض، أي أنه يقترح أن يتم الحل داخل التشكيل الاستعماري الغربي، بل يترك الباب مفتوحًا أمام الأشكال الصهيونية الأخرى، الصهيونية الإثنية الدينية وغيرها، ويضع يده على ضرورة وجود صهيونيتين؛ واحدة استيطانية والأخرى توطينية.

ومع هذا، ظلت صيغة بنسكر مترددة متعثرة، ربما بسبب تكوينه الثقافي الضيق، فالأفق الثقافي في روسيا القيصرية كان ضيقًا إلى أقصى حد، وكان أكثر ضيقًا داخل المدن اليهودية ومواطن الاستيطان، ولذا فإنه لم يكن لديه إدراك كامل لحتمية الاعتماد على الإمبريالية الغربية لوضع أي مشروع استيطاني موضع التنفيذ، فالمشروع الاستعماري الروسي لم يكن على استعداد لتوظيف اليهود لصالحه، بل كان يود التخلص منهم في أسرع وقت، كما أنه لم يكن مشروعًا عالميًا كما كان الحال في انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة، إذ أن المطامع الروسية القيصرية كانت تتجه نحو دول البلطيق والمناطق التي تفصل بين روسيا واليابان والصين والدولة العثمانية، أما فلسطين فقد كان الروس ينظرون إليها باعتبارها منطقة نفوذ أرثوذكسية، وهو ما يتطلب استبعاد اليهود، ولذا فرغم أن كل أفكار هرتزل الأساسية موجودة في الانعتاق الذاتي إلا أن هرتزل قد حقق ما لم يحققه بنسكر لأنه كان مدركًا لحتمية الاعتماد على الإمبريالية الغربية باعتبارها الآلية الوحيدة لتحقيق الحلم الصهيوني.

زار بنسكر باريس وأقنع لورد روتشيلد بمساعدة الاستيطان اليهودي، ونظرًا لأن

الأموال التي جمعتها جماعة أحباء صهيون التي ينتمي إليها بنسكر كانت قليلة جدًا (فهي لم تكن حركة جماهيرية)، فإن معظم المستوطنات كانت في نهاية الأمر قد أصبحت تابعة لروتشيلد، كما أن بنسكر تابع مشاريع البارون "موريس دي هيرش" لتوطين اليهود الروس في الأرجنتين باهتمام شديد.

ويُعد بنسكر مفكرًا صهيونيًا أكثر من كونه منفذًا للمشروع، وصهيونيته هي من النوع الذي يُطلق عليه «الصهيونية العملية» أي «التسلُّليَّة»، كما أن أسلوبه وأفكاره يشبهان أفكار وأسلوب هرتزل إلى حدٍّ كبير، لكن هرتزل قد دوَّن في مذكراته أنه لم يطَّلع على كتابات بنسكر، ولعل الفارق الأساسي بينهما هو مدى إدراك حتمية الاعتماد على الإمبريالية، إذ كان بنسكر يتحرك داخل وهم الانعتاق الذاتي التسللي وبناء دولة بجهد يهودي ذاتي وتكون على الحياد.

## أحباء صهيون:

ومن دعاة الصهيونية الأوائل، "أحباء صهيون"، فقد كان طلبة الجامعات من اليهود يجتمعون سرًا بعيدًا عن أعين رجال الأمن، وكان يتزعمهم في ذلك الزمن طالب كلية الطب "رابورت" الذي عمل طبيبًا بعد ذلك، وأحباء صهيون هم جماعة صهيونية تأسست عام ١٨٨٢ من ٢٥ طالبًا روسيًا في جامعة "خاركوف"، أصدرت منشورات تتغنى بحب فلسطين وجبل صهيون والغيرة عليهما، وتدعو إلى الهجرة إلى فلسطين لاستيطانها واستعادة "مجد بني إسرائيل"، وفي العام نفسه تشكلت أيضًا جماعة صهيونية أخرى تحمل الاسم ذاته في جامعة أوديسا بروسيا.

ومن دعاة الصهيونية الأوائل، "بيلو"، وهذه الكلمة (كالعادة في اللغات الأجنبية) تتشكل من الأحرف الأولى لأربع كلمات بالعبرية هي "بيت يعقوب تعالوا لنرحل"، وقد نشرت نداءها الأول من مركز تجمعها في جامعة القسطنطينية عام ١٨٨٢ م، واعتبر الصهاينة فيما بعد هذا النداء نموذجًا للدعوة الصهيونية إذ جاء فيه:

"دعوة يهود المنفى للنهوض من سباتهم الذي استمر ألفي عام، وغسل العار الذي لحق بالأمة اليهودية منذ دمار الهيكل، والحصول على موطن لليهود في أرضهم فلسطين، وإقامة مركزهم الأساسي في القدس، وإقناع السلطان العثماني بمختلف الوسائل، وإغراؤه بعدالة قضيتهم وكسب دعمه ورعايته".

وفي العام ذاته تأسست جمعيات صهيونية مماثلة في النمسا وألمانيا وغيرهما، إلا أن هناك اتفاقًا عامًا على أن "أحباء صهيون" و"بيلو" هما الجماعتان الرائدتان في هذا المجال، وإن كان بعض المؤرخين يعتبر إحداهما سابقة على الأخرى بعدة أشهر، ويضفي كتاب بنسكر "التحرر الذاتي" المنشور عام ١٨٨٢ م أهمية إضافية على هذا العام أيضًا لسببين:

أ. كان ليو بنسكر الطبيب الروسي المثقف والمندمج تمامًا في المجتمع الروسي أحد الدعاة اليهود الروس إلى الاندماج في مجتمعهم، وكان معجبًا بالثقافة الروسية، كما كان عضوًا نشيطًا في "جمعية نشر الثقافة الروسية بين يهود روسيا"، وقد ظل كذلك بالفعل حتى انفجار أعمال العنف والدمار، وما تخللها من مذابح ضد اليهود إثر اغتيال القيصر الروسي عام ١٨٨١ م، فانسحب من الجمعية الثقافية، وبدأ يبحث عن "حلول جديدة للمسألة اليهودية" خارج الاندماج في المجتمعات المحيطة بهم.

ب. تضمن هذا الكتاب أول برنامج عملي يُدعى الحل النهائي للمسألة اليهودية، وأخذت به على الفور الجماعات الصهيونية المنظمة (أحباء صهيون) واعتبرته كتابها المقدس، كما تلقفت الكتاب أيضًا الجماعات الصهيونية الأخرى في النمسا وألمانيا، وجاء في الكتاب: "اليهود قوم شبح لا وطن لهم، وبما أن الإنسانية تكره الأشباح، لذا تقوم الشعوب باضطهاد اليهود، إن حل المسألة اليهودية يكمن في تحويل اليهود من قوم شبح إلى قوم طبيعي، وهذا يتطلب بالضرورة إقامة وطن لهم في مكان ما.. اللاسامية لا يمكن أن تزول طالما أننا لا نملك وطنًا قوميًا خاصًا بنا، لأن شعور الكراهية ضد اليهود متأصل في النفس البشرية، لذا ينبغي

إنقاص عدد اليهود في كل بلد ضمن الحدود التي تمليها الشروط الاقتصادية للسكان الأصليين.

ولا ينبغي التفكير بهجرة الشعب (اليهود) الكاملة، وإنما تهجير الفائض (الجماهير الفقيرة) من السكان، ويجب أن تتولى هذا الأمر منظمة صهيونية مركزية نواتها الجمعيات القائمة حاليًا، وذلك من خلال مؤتمر عام تعقده هذه الجمعيات وتقرر فيه إنشاء شركة مساهمة للمتمولين اليهود، تكون مهمتها شراء قطعة من الأرض يمكنها استيعاب بضعة ملايين من الفائض اليهودي في أوروبا.

إلا أن الجمعيات التي اعتبرت هذا الكتاب بمثابة التوراة الجديدة، أخذت على بنسكر دعوته إلى الاستيطان في أي مكان، ونقل فكرة الرب والتوراة إلى هذا الوطن الجديد، ودخلت مجموعة أحباء صهيون في خاركوف وأوديسا في حوار مع المؤلف لإقناعه بتبني فكرة استيطان فلسطين بالذات، وتحديدها هدفًا لهجرة اليهود وتأسيس دولتهم فيها، وعرضت هاتان المجموعتان على بنسكر رئاسة جمعيتها الموحدة مقابل تبني خيار فلسطين وطنًا لليهود، وما كاد يوافق على تبني استيطان فلسطين حتى أعلنه قادة الجمعية رئيسًا لجمعية أحباء صهيون الموحدة في أوديسا (١٨٨٣م) على أن يساعده في توجيه أعمال الجمعية وإدارتها "موشي ليلنبولوم" الذي فيه أفكار بنسكر مع إضافة محايدة تتضمن اعتبار فلسطين وحدها وطن اليهود المقبل.

وبذلك أصبحت جمعية "أحباء صهيون" الجمعية القائدة للدعوة الصهيونية فكرًا وممارسة، وسرعان ما انتشرت فروعها في أوروبا الشرقية والغربية، وأصبحت الدعوة إلى "مؤتمر قومي عام" أمرًا حيويًا بالنسبة لهذه الجمعيات لصياغة برنامجها المرحلي وأهدافها الإستراتيجية، وبالفعل انعقد هذا المؤتمر في مدينة "اتوفيتز" في بولندا عام ١٨٨٤ م، ثم تلاه المؤتمر الثاني عام ١٨٨٧ م والثالث عام ١٨٨٩ والرابع عام ١٨٩٠ م.

لقد استطاع أمثال "العيزر بن يهوذا" و"رابورت" وغيرهما، أن ينقلا القضية اليهودية إلى يهود الغرب الأغنياء وقبلها إلى المثقفين، وحيث تأثر هؤلاء بأساطين الشيوعية أمثال "كارل ماركس" و"إنجلز" و"موزيس هيس ١٨١٢م – ١٨٧٥م" الذي كان صديقًا مقربًا لكارل ماركس الذي ولد عام ١٨١٨م، وحتى أن كثيرين من الباحثين يرون بأن موزيس هيس اليهودي الألماني هو مؤسس الشيوعية الحقيقي بل هو من أوحى لماركس وإنجلز بالأخذ بها، فقد كان يكبر ماركس بست سنوات ويكبر إنجلز بثمان سنوات، بهذا يمكن القول بإن اليهود هم من ساهموا في هدم النظام القيصري في روسيا، وتلك مسألة أخرى.

في المؤتمر الرابع نضجت الحركة الصهيونية، وبدأت تتمايز التيارات الفاعلة داخلها، وبرزت في هذا المؤتمر الذي انعقد في أوديسا عام ١٨٩٠ م ثلاثة تيارات رئيسية:

أ. التيار العملي بزعامة "ليلنبلوم" والذي دعا إلى الاستمرار في الهجرة إلى فلسطين وإنشاء المستعمرات والاستيطان فيها تحت أي ظروف وبأي شروط.

ب. التيار الروحي – الثقافي بزعامة "أحاد هاعام" (الاسم رمزي ومعناه: واحد من الشعب، الاسم الحقيقي: آشر غينزبرع) وكان هذا التيار يلح على ألوية العمل الثقافي والروحي بين اليهود، ويعتبر فلسطين مركزًا ثقافيًا روحيًا بالدرجة الأولى.

ج. التيار الديني الحرفي المشدودة إلى فلسطين بسبب مكانتها الدينية، إلا أنه ينتظر ظهور المسيح المنقذ الذي سيتولى تحقيق نبوءة التوراة بقيادة اليهود، والعودة بهم تحت رايته إلى فلسطين.

وقد كان هذا عرضًا موجزًا وسريعًا للنشاطات الصهيونية في أوروبا الشرقية، وبعض فروعها التي تولى إدارتها وتوجيهها طلاب شرقيون يدرسون في جامعات أوروبا الغربية كجامعة فينا وجامعة برلين، كالجمعية التي أسسها "ليوموتزكين" عام ١٨٩٠ م تحت اسم "الجمعية العلمية للطلاب الروس اليهود" والتي انضم

إليها مشاهير القادة الصهاينة أمثال "حاييم وايزمان" و"شماريا ليفن" و"دافيد جاكوسن" وغيرهم.

أما في الشطر الغربي من أوروبا فقد تأخر تأسيس هذه الجمعيات عن الشطر الشرقي قرابة عقد من الزمن، وهناك كراس أصدره الصهيوني الألماني "بودنهايمر" بعنوان "أين نذهب باليهود الروس"؟ وأجاب عليه: "إلى فلسطين وجوارها في سوريا"، ويعتبر هذا الكراس بمثابة الشرارة التي استقطبت أمثاله من الصهاينة للبدء في التنظيم، كما أصدر "بودنهايمر" ذاته نداء في أيلول عام ١٨٩١ م بعنوان "يا صهيوني العالم اتحدوا"! وتضمن هذا النداء مشروعًا لاستعمار فلسطين وتأسيس شركات تطوير الأراضي، ومد الخطوط الحديدية وغير ذلك من مقومات بناء الدولة.

وبشكل عام كان مشروعه مماثلاً لمشروع "أوليفانت" الإنكليزي الخاص باستعمار فلسطين يهوديًا، وهو ما سيرد الحديث عنه لاحقًا، ونقطة الخلاف الرئيسية بين مشروع بودنهايمر الألماني وأوليفانت البريطاني، أن الأول دعا إلى ربط "دولة اليهود" العتيدة بالإمبريالية الألمانية ووضعها تحت حمايتها، في حين دعا الثاني إلى ربطها بالإمبريالية البريطانية ووضعها تحت حمايتها.

وما كاد "بودنهايمر" يلتقي مع "وولفسون" (الذي أصبح فيما بعد رئيسًا للمنظمة الصهيونية العالمية) في شباط عام ١٨٩٢ م وتم التعارف بينهما حتى اتفقا على تأسيس "نادي صهيون القومي اليهودي" و"جمعية أحباء صهيون الألمانية" التي انضم إليها على الفور "بيربناوم" واتفق الثلاثة على الدعوة إلى مؤتمر صهيوني عام لصياغة الأهداف النهائية للصهيونية السياسية بشكل واضح، وجمع اليهود حولها، فوافقت على الفور جمعية إسرائيل الفتاة الألمانية التي تأسست في برلين عام ١٨٩٣ م.

وعن لقائه مع وولفسون كتب بودنهايمر في مذكراته: "وهكذا ولدت الصهيونية الألمانية".

وفي المؤتمر العام الذي انعقد في برلين عام ١٨٩٣ م أقرت مشـــاريع تتضـــمن إنشاء منظمة صهيونية موحدة، وصندوق مالي وتشجيع الاستيطان اليهودي فـــي فلسطين وتنظيمه وإحياء اللغة العبرية، كما جدد الدعوة لعقد مؤتمر قومي عـــام يضم جميع التنظيمات الصهيونية العاملة في ألمانيا.

وبالفعل انعقد هذا المؤتمر في مدينة كولون بألمانيا عام ١٨٩٦ م وتبنى المؤتمر مشاريع وقرارات مؤتمر برلين، وأصدرها في كراس بعنوان "قضايا كولون".

وجدير بالذكر أن للصهيونية مدارس ومبادىء مختلفة منها الصهيونية الثقافيـــة التي تؤكد أن فلسطين يجب أن تكون منارة أو مركزًا روحيًا وثقافيًا للعالم، كـــذلك هناك الصهيونية العملية التي تؤكد بأنه يجب ربط الصهيوني مـــع الأرض عـــن طريق العمل، ومن أنواع الصهيونية الأخرى، الصهيونية الاشتراكية التي تحـــث على إيجاد منطقة يُقام فيها مجتمع مصنف طبقيًا يتم فيه صراع طبقي ومـــن ثـــم حصول ثورة، وأخيرًا الصهيونية الدينية التي تريد تطبيـــق الشـــريعة اليهوديـــة وخاصة التلمود في سياستها، وكذلك اعتقاد المتدينين اليهود أن أرض الميعاد قد وهبها الله لبني إسرائيل فهذه الهبة أبدية ولا رجعة فيها، إلا إنهم لـــم يتحمســـوا كثيرًا للصهيونية باعتبار أن أرض الميعاد ودولة إسرائيل "لا يجب أن تُقـــام مـــن قبل بني البشر كما هو الحال بل يجب أن تقوم على يد المسيح المنتظر".

وهكذا ولدت فعلاً الصهيونية الألمانية، وكانت قد سبقتها الصهيونية الروســـية – البولونية بعشر سنوات.